مصرع نوار كوتو القديس الفاسق

بقلم إيزيدور كوليانوف

للأستاذ محمد لطفي جمعه

منذ الشهر العاشر من عام ١٥٧٥ تربع فيدور الثالث على عرش جولد نفاجوس عاصمة ديز ڤيدانيا ، فى قصر منيف واسع الأرجاء ، تحيط به أبراج وحصون عالية الذرى ، وتلتف حوله بساتين ناضرة وحدائق غناء ، ورياض خضراء ، وغابات ملتفة الأشجار شاهقة الأغصان كأنها قطعة من جنات عدن . وكان البلاط الملكى فى أقصى درجات الرفاهية ، تحف به مظاهر الهيبة وتتمشى فيه تقاليد موروثة منذ مئات السنين ، وتخضع لنفوذه ألوف الرجال وتخر أمامه مئات الرؤوس من القواد والساسة والعلماء والدهاة والوزراء والمتزلفين . وإذا بقدم جاهل من طبقة الفلاحين السذج البسطاء خارج من أعماق « تسار كوسيلو فلاخش » إحدى مقاطعات ديز ڤيدانيا ، وأقفر نواحيها ، وأبعدها عن الحضارة والغنى ، واسمه نوار كوتو ، يظهر بمظهر الرهبان ويتشح بمسوح الصالحين الزاهدين ، فيقبض بيده اليمنى على عكاز متين ، وبيسراه على قلب كلارپوتانا زوجة فيدور الثالث وشريكته فى الملك وقسيمته على العرش والصولجان ، فيمد نفوذه من قلب الأميرة المتوجة كلارپوتانا إلى البلاط الملكى فيصير له الأمر والنهي والقبض والبسط ، وبيده الحركة والسكون وبين أنامله الحل والعقد ، وتخضع له ديز ڤيدانيا من أقصاها إلى أقصاها ، وتنفذ كلمته قبل كلمة فيدور الثالث نفسه ملك ديز ڤيدانيا وصاحبها وسيدها . ويذيع فى الدولة خبر الراهب ، وينتشر مع اسمه فى المدن والقرى والدساكر والحقول والمصانع ، أن فى بلاط الملك زاهداً مقدساً وراهباً ورعاً ، ونقياً تقياً ، يأتى بالكرامات وتتم على يديه خوارق العادات ، وأنه مقبول الارادة عنده نافذ المشيئة بإذنه ، وأنه مستجاب الدعوات ، فلا يطلب شيئاً إلا ويجاب إليه ، فما من نعمة

تعريف بالقصة

إيزيدور كوليانوف مؤلف روسى مقيم فى أمريكا ، وقد تنقل بين الولايات المتحدة والمكسيك وجواتيمالا . وقبل إنه نقل هذه القصة القصيرة العجيبة عن أسطورة مكسيكية قديمة جعلت حوادثها فى القرن السادس عشر وكان رايدر هاجارد القصاص الانجليزى المشهور قد وصف « قلب الدنيا » وعاصمة النحاس ومدينة الكنوز (وهى مدن مفترضة) عن أساطير أسبانية وأمريكية

أما هذه القصة فأهم ما تدور عليه حوادثها الأخلاق والسياسة وعواقب الاستبداد ، واستعباد النساء للشهوات . وقد أفرغ الحوادث فى قالب جذاب فاتن . أما العقدة وهى المؤامرة التى قضى بها على الراهب العاشق فمن أغرب ما تخيله فكر قصاص خصب ، وقد نشرت القصة بخريطة تبين معالم المدن وأهم ما فيها ولم نر فائدة مباشرة فى نشرها ، فنكتفى بذكر ماورد فيها من الأسماء تفادياً من رسمها رسماً قد لا يتقنه إلا خبير جغرافى . ديز ڤيدانيا : اسم المملكة وهى واقعة بين توكسمانيا وديڤيدانيا جولد نفاكوس عاصمتها على نهر شانطور وهي مدينة كبري . طوكسين : جبل عال فى شمال المالك الثلاث ولا يحول بينها . تسار كوسيلو فلاخش : مقاطعة الراهب التى ولد فيها وعاد إليها . هاشفات : قرية هى عاصمة المقاطعة وهى التى استقبل بها . شانطور : نهر كبير يخترق المملكة ويمر بالعاصمة والقرية . توكسمانيا وديڤيدانيا : جارتان معاديتان لديز ڤيدانيا

تنال أحداً من أهل النفوذ إلا وهو مريدها ومتمنيها وسائل الله والملك فيها . وما من نقمة تصيب أحداً منهم إلا وحبلها بيده ... وأنه من أجل هذه القوة الغامضة الخارقة قد أصبح الشيخ نوار كوتو الحاكم بأمره في القصر وعلى قوائم العرش وفي ديوان الملك ثم في أعناق الرعية . هو الذي يشفي المرضى بغير طب ولا دواء ، ويعالج الجراح دون مشرط أو سلاح ، وينقذ من الموت من شارفوا عليه ومدوا يدهم لمصافحة الأبدية ، فكأنهم عند سماع صوته ومقابلة نظرته قد بعثوا من مراقدهم . بل هو يحيي الموتى ويعيد إليهم وجودهم ، وأنه على كل شيء قدير ، وهو الذي يغني ويفقر ويعيد المنضوب عليهم إلى حظيرة الرضى الملكي — سواء أرضي الملك أم لم يرض — وينقل المرضي عنهم والمقربين إلى مضيق السخط والغضب ، سواء أغضب الملك أم لم يغضب. ليس الملك فيدور والملكة كلابوتانا والوزراء والقواد سوى أدوات صماء في أيدي الراهب الزاهد والكاهن القانع نوار كوتو الذي كان يعيش عيشة التقشف في بيت وضيع في أحد أحياء المدينة الآهلة بالفقراء . ولما كان أهل ديزفيدانيا محبين للاطلاع وقد أتقنوا صناعة التجسس لأن جيرانهم الدرافيديين شرقاً والتكسومانيين غرباً يطمعون في بلادهم ، فقد حذقوا التقاف الأخبار والتقاطها من أفواه المتكلمين للوقوف على الحقيقة التي قد تفيدهم في الدفاع عن أوطانهم ، فقد صرت تلك السليقة من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة ، ومن التجسس على العدو الخارجي إلى التجسس على العدو الداخلي . فأخذوا يروون عن الراهب الرهيب أخباراً يحمر لها الوجه خجلا ويقطر العرق من جبين راويها وسامعها حياء ، لا ينجو من ذلك النبلاء والأشراف وزوجاتهم ولا رجال الدين وسدنة المعابد في ديزفيدانيا طولا وعرضاً وشمالا وجنوباً . فنسج دعاة السوء وذوو الألسنة اللاذعة خيوطاً من الأوهام والأخيلة والقصص وزعموا أنه على الرغم من تقواه الظاهرة ، قد غرس بذور الاباحة في مزرعة الأخلاق الطاهرة واتخذ من مظاهر الدين وسيلة للتعدي على الفضيلة ، وأنه سخر من بساطة أهل الاستقامة ورماهم بالحماقة والبله . فلم يقف في طريقه حاجب ، ولم يحل دون اندفاعه في رغباته وتيار أهوائه حائل . بل إنه لا يسمى ذلك عبثاً ولا لعباً بالفضيلة ولا تعدياً على الأعراض ، إنما هي الطبيعة التي يخضع لها ويلبي نداءها ويصغي إلى صوتها ويطيع أمرها في كل وقت من أوقات النهار أو الليل . فهو لا يقترف جرماً متعمداً ، ولا يخالف مكارم الأخلاق قاصداً ، ولكنه يسمع النداء من قريب ومن بعيد . فما لديه اكتراث لعفة العذراء ، ولا لكرامة الزوج ، ولا لرابطة النسب. حقه وهو « الرجل » مقدم على حق الزوج إذا أراد هو ووافقته الزوجة . الشرائع والقوانين والعقود .. وسائل مادية بمثابة الأوراق التي تعلق في أعناق السلع لتدل على أثمانها أو البطاقات التي تتدلى على جوانب الحقائب تنسبها إلى ذويها . ولكنها لا تمنع الرجل الماهر أن يحمل الحقيبة ويولي بها الأدبار

ليستمتع بما فيها من أدوات الزينة ... وهكذا النساء الأبكار والثيبات والمتزوجات والمعشوقات، كلهن فى نظره ملك يمينه وراقصات فى هيكل ملذاته الذى لا تغلق أبوابه . لقد كانت تلك المواهب والرذائل واضحة فى ذهنه ، وكان واعياً لكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال . ولكن العامة ظنوه غامضاً . . وأين الغموض أيها الحمق ؟ إنه رجل متعبد ، قوي الارادة قوة نادرة ، سوبرمان إذا شئتم؛ أتقن حكمة الدين وحكمة القلم وحكمة اللسان ، يصلى ويسحر ويريد وينال ما يريد غير مدافع ولا منازع ولا مقارع . أنتم تسمون بعض ذلك رذيلة وهو يسميه إشباعا واستمتاعاً . ترون فيه الشر والجانب الأسود ، وهو يرى فيه الخير والجانب الوردى . الله المحبة . والمحبة كل شيء ولا حدود لها . وهؤلاء المريدون من ساسة وقواد وأمراء وكواعب ناضجات وفتيات مخدوعات وظباء غريرة

* * *

في سفح جبل طوكسين فيلار ، وعلى ضفاف نهر شانطور يرى السائح فى مقاطعة تسار كوسيلو فلاخش قرية هاشئات ببدول ، وهى مربط أفراس ومستودع مركبات حوافل وملتقى قوافل، وموطن تكنات للجند والجحافل ، ومركز دائرة الطرق والسبل من العاصمة إلى الداخل، ومحط رحال التجار والمهاجرين والمسافرين من أهل التقوى وأهل الفجور . وقد نشأ نوار كوتو فى أحد بيوت تلك القرية المطلة على الحقول والمحتكة بالرائحين والغادين .

فلما شب الفتى وترعرع ، هوت نفسه إلى الشعوذة والدروشة الكاذبة وهو يظن أنه مجذوب إلى لباب الدين، فأخذ يغشى المعابد ، ويطيل الصلاة فى المحراب ويتحدث إلى كل من بدا له فى ثوب الصلاح ليفيد منه علماً . فكان الواردون يذكرون المعجزات وخوارق العادات وحياة الجن وتأثيرها فى الانسان وقوة الخير والشر وسيادتهما فى كل زمان ومكان ، فجذبه هذا الخفاء فى حياة البشر واستدرجه السر والسحر، وتغلب على خلقه الميل إلى التحكم فى حياة الناس بتأثير العقل فيمن لاعقل لهم

وكان أهل ديزئيدانيا قاطبة من الجهلاء والفلاحين المشغولين بالزرع والقوت والتناسل ، فكان لقوة الخيال ونفوذ الأوهام فيهم المكان الأول، وكانوا مظلومين ومرهقين ... كان فيدور الثالث ملكا على جانب عظيم من البلاهة ، كانت وراثته ملوثة بالأمراض التى تصيب الجسم والعقل . وكانت ملكته وعقيلته كلاريوتانا متحكمة فيه لانحدارها من سلالة ملكية أرقى من سلالته وأسمى . وكانت ذات جمال رائع وشخصية شبقة وإرادة ملتهمة وشهوة ملتهبة . فوضعت فى عنق زوجها أغلالاً . فما كان ظلم الرعية يهمها أو يهم بعلها ، وهذه الرعية الجاهلة الفقيرة بجهلها أكثر من فقرها لجدب أرضها . إن جدب العقول أقرب إلى الفاقة من إجداب الأرض وعقمها

فما كانت كلاريوتانا تبالي أظلم الشعب أم لم يظلم؛ وقد اخترع الكهنة للرعية فكرة الملكوت الأعلى

حتى إن من لم ينل نصيبه في هذه الكرة الأرضية ، لن يفوته نصيبه فى كرة أخرى ، ولكنها علوية . فكانت الرعية أقرب إلى التصديق والاعتقاد والايمان بالأوهام . هذه المعابد قد انقلبت مسارح ومراقص، وتلك الهياكل صارت أماكن للتعذيب والتنكيل ، فان الكهنة قد فرضوا على الشعب فريضة الايذاء والجلد والجوع وتعذيب الأبدان لراحة الأرواح وتنقية النفوس وتطهير القلوب . مزيج من الوثنية الهندية والبيوريتانية الأيقوسية والكويكرزم . لقد سرت الشهوات فى الأبدان وسارت سيراً عكسياً . كانت الدواعر تجلد الشيوخ فى المخادع ليحركن من همتهم الفاترة؛ وكان الكهنة يجلدون العذارى والكواعب ليطهروا من قلوبهن وينفروا من ذنوبهن . ومن هذا الجلد والتعذيب وشحذ السياط ، إلى مذهب إشباع الحواس بعلة أن الله خلقها وسواها ، وألهمها فجورها وتقواها ، خطوة واحدة ! فلم يكن الشيخ الفاجر نوار كوتو واضع هذا المذهب أو الداعى إليه، إنما كان أحد أتباعه فسار فى أثر تياره وقلد أشياعه ومريديه. وكان فقهاء هذا المذهب يلتمسون التعليل والتحليل، ويبحثون عن التزكية بطريق التضليل ... ولكن نوار كوتو قد وضع المذهب موضع التنفيذ ، فان الله فى زعمه لم يخلق لنا أعيناً إلا لنرى بها ما يمتعها ويمتعنا ، فلا نجعلها تقع إلا على ما يسرنا ، ويملأنا نشوة وفرحاً، وجعل لنا آذاناً لنسمع بها أحلى الأصوات وأجل الأنغام ، فوجب علينا أن نفر بها حتما من أنكر الأصوات وأرذلها ، وأبعدها عن الانسجام والهارمونية .. وما دمنا فى هذه الحياة الدنيا فلنستمتع بحواسنا ، بأبصارنا وأسماعنا وبقية جوارحنا ؛ والذنب كل الذنب فى حرمانها ، والأجر كل الأجر فى تمكينها . أما تعذيب البدن فهو وسيلة التطهر الذى لا يكون إلا لمن يشعر بأنه مذنب . أما الطاهر فلا يتنجس مطلقاً . وها هو الزاهد نوار كوتو قد صار إمام المذهب وشيخ الطريقة وتجلت قدرة الخالق عليه فبدت له تصاوير فى الأفق فى وحدة الليل ، وفى وضح النهار ... هذه تماثيل القديسين وأعين القديسات ترمقه وهن بضر بن الورد بالعناب، ويعطرن اللؤلؤ من النرجس ، وأصوات الملائكة تدعوه إلى الحضرة الملكوتية : وهذا هو الوحى بعينه وقوة الخيال وخصوبة الادراك الباطن، وها هو ذا يصير ولياً يد الله تدعوه ، وصوت الملائكة يحدوه ، ونور البصيرة يقوده، وعناية الأرواح العليا ترشده وتكلؤه. فما عليه إلا أن يلبى النداء ليرقى أسباب السماء ، وها هى ذى الأصوات تهمس فى أذنه وتأمره بالسياحة الكبرى التى لا وصول بغيرها . فليحمل المخلاة والكشكول، وليتشح المرقعة ذات الديول، وليتأبط وعاء القناعة الحافل بألوان الطعام من المائدة السماوية، وليقبض على العكاز الذي ينبت فى يده أفنانا وأغصانا، ويورق روحاً وريحاناً ، فلا قيظ الصيف ، ولا قر الشتاء، ولا وحوش الغاب، ولا أفاعى الغبراء، ولا الذئاب الجائعة ، ولا الثعابين اللاسعة ، لتخيفه بأنيابها وسمومها وإن يكن فراشه الغبراء وغطاؤه القبة الزرقاء ... نفس قوية لا ينفذ إليها من خلال

الجسم برد الجليد ولا وهج الشمس ، ولا تعتريها علة ولا يصرعها داء .. وهذه التكايا والأديرة ملجأ الهادىء الهانىء عندما تخور منه قوة البدن أو يحتاج إلى التجديد ، كما يشعر الأفعوان المقدس بالحاجة إلى تغيير جلده فيسلخ عنه القديم ليحظى بثوب مرقط جديد . ولكن هذا البدن كان يلح عليه أحياناً إلحاحاً شديداً ، ويغريه إغراء مزعجاً ، فلا يملك أن يحرمه ، فان حرمه أحس بوخز الابرة ، فلا بد له من الخمر المسكر ، والنبيذ المخدر .. ليفيق ، أى نعم ليفيق فهو فى نشوة دائمة ، لاتقاومها نفسه الهائمة . وبعد الافاقة أو السكر لا بد له من نعومة الأبدان المعطرة ، ولمس أجسام الإناث ذات الطراوة والخصوبة الفاتنة ، والعبث بالأيدى الرخصة . فتلك الجسوم اللينة المتثنية التى يعالجها من مَسّ الجن لا بد أن تدفع له الثمن ، وما ثمن الشفاء إلا الاستمتاع ومشاركته فى اللذة الطارئة والقبلة العارضة . هذا هو الاتصال المقدس ، مظهر الحب الأعلى ، إفراغ الحقيقة فى قوالب الخيال ، فان لم تكن تلك التى تلتمس العلاج تجود بنفسها ، فاليه من يلقاها فى الطريق عرضاً ، فى سواد الليل أو فى نور النهار . راعية أغنام ، أو طاهية طعام ، غنية ، أو معدمة ، طاهرة أو داعر ، كلهن صالحات لبرء القديس من ألم الرغبة المحرقة . خمس سنوات ، وسبع سموات ، وألف دير ، ومئات النساء قضاها وطرقها وطاف بها وأظلته سقوفها وذاق حلاوتها وسرارتها ، وعشرات المرشدين والرفاق والمؤمنين تلقى عليهم وتلقوا عليه . وفى جبل آثوس دياناً ، أشرقت عليه الحقيقة المطلقة حقيقة العالم المحكوم بالخير والشر ، ولكنها فى نظر الحاكم الأعلى شىء واحد ، لا فرق بينهما ، لأنه هو الذى أرادهما وخلقهما وألهمهما ، فهما حقيقتان مطلقتان فى نظر العبيد ، ونسبيتان فى نظر السيد الأعظم — فلا خير بلا شر ، ولا شر بلا خير ، كما أنه لا ليل بلا نهار ولا نهار بلا ليل ، ولا نور بغير ظلام ، ولا ظلام بغير نور ، ولا نار بغير رماد ، ولا رماد بغير نار ... هذه هى الحقيقة التى توهم أنها أوحيت إليه ، وعليه أن ينشرها ويبشر بها ويباشرها . إن الله معه ، حاضر يراه ويسمعه ، يجيبه إذا سلى ، ويحقق آماله إذا اتجه إليه . أليس عبده المطيع ومخلوقه الخاضع ؟ وها هوذا قد خرج من الخلوة ، ونفض ثياب التحنث فى الكهوف وصدر إليه الأمر بالظهور ، فعاد إلى قريته (تشاركو سيلو فلاخش) فخرجت على بكرة أبيها تحييه وتستقبله وتحتفل به ، وهو ابنها البار الذى طاف العالم بأمر الله وتعلم وتلقن وتأهل واستعد . وكان رئيس الكهنة (كونيكتوفيلار) على رأس المواكب التى أخذت بيده وأحاطته بالكرامة والبر ، وقد وضع على رأسه أرصوصة [1] محلاة بالذهب والجوهر وقبض على عكاز الرياسة الدينية . فلما أقبل القديس احتضنه الرئيس وسلمه العكاز ، ووضع الأرصوصة ليرفعها على رأس الضيف الكريم وخلع رداءه الأزرق

(١) فى الأصل تيارا Tiare أى تاج مقدس يلبسه رؤساء الدين وهو مستدير منفوخ فاخترنا له « أرصوصة »

ليزين به منكبيه ، ولكن القديس ركع وصلى ، واستغفر واعتذر . فقال له رئيس الكهان المعظم « لم تعد هذه القرية بصالحة لاقامتك ، فلا بد من سفرك فوراً إلى جولدنفاجوس عاصمة ملكنا ، ومقر عرش مولانا فيدور الثالث ملك ديزفيدانيا ، فمكانك هناك بجوار العرش ، ومجلسك عن يمين الملك ؛ فهو أحوج ما يكون إلى قوة روحك ، وبركتك » قيل هذا القول بمسمع ومرأى من عجائز القرية وأبكارها شيبها وشبانها . وهـذا أقصى ما يطمع فيه « رجل الدنيا » من مجد ... ليت عجائز قريتى يرينى ! هل كان الكاهن الأكبر مازحاً ما كراً ، أو صادقاً مخلصاً مؤمناً بما وصف به مواطنه ؟ هل أراد أن يهدى إلى الملك نصوحاً ومعيناً أم يتخلص من مزاحم خبيث لا تؤمن عاقبة أطماعه وطموحه ؟ ... ولما وصل نوار كوتو إلى العاصمة كانت الأمة خارجة منذ عهد قريب من حرب التوكسمانيين الطاحنة ، ولم توشك أن تنفض عن أكتافها غبار الهزيمة الفاضحة . وكان رأى البورجوازيين من أهل (جولد نفاجوس) على أشد حال من الاستياء والتذمر بعد الخسارة النكراء التى أصابتهم فى شرفهم وعزة أوطانهم . وكان النبلاء يشعرون بأن قوائم العرش قد تزعزعت ، وأركان السلطان المطلق قد تصدعت ؛ ولكنها لم تنقوض فتشبثوا بالبقية الباقية منها ، معتقدين أن فى استمساكهم بها منفعة لهم ولذراريهم ، فقد أمسوا أرقاء الشهوات والترف ، وسرى الفساد فى نفوسهم سريان السم فى الأبدان . فلم يجدوا علماً يرجعون إليه ، ولا عقلاً يلجأون إلى أحكامه ، ولا علماً يلتفون حوله ، ولكنهم يشعرون بالخطر ويشمون رائحة النهاية التى تدنو منهم شيئاً فشيئاً .. أويدنون منها . لقد أحسوا أنهم فى آخر نهار لتلك العظمة والمجد والدولة التى آن زوالها واندثارها . هذا الشعور بآخر النهار عندما يميل ميزان الشمس ، وتختفى الأشعة الأخيرة ، هذه القيامة توشك أن تقوم على دولتهم وتفاجئهم بالويل والثبور وعظائم المهلكات

فكان النبلاء والوزراء يلجأون إلى المنجمين والمشعوذين ، ويتبركون برجال الدين ويتحككون بجدران الهياكل ، ويتذرون النذور ، ويلتقفون البشريات من أفواه المخرفين والدجالين ، فالشر مرتقب والخير مغيب ، والشهوات متحكمة ، والملك فيدور الثالث مضمحل الارادة منحل القوى وهو أكثر رعباً من المستقبل الغامض ، ومن الحاضر المظلم من أضعف صانع أو عامل فى دولته . وكانت الملكة (كلارپوتانا) قد أصابها داء الهيستريا لحرمانها من ذكورة زوجها حرماناً مبكراً ، فانقطعت سلسلة نسلها ، وذوى عود شبابها ، وجف ماء حياتها ، ولم تكن نظم البلاط لتسمح لها بأن تتخذ من الجند أو الضباط عشيقاً ماجوراً مأموراً كما كانت تفعل جدتها كريستيانيا أو حماتها بيلادونا . فلما أن سمعت بالولى الجديد استدعته بحجة علاجها من أدوائها ماظهر منها ومابطن . فلما استأذن عليها بأمر رجلها الفاقد رجولته ، بهرها منظره واستولى عليها

الفزع والطرب فى آن ! فهاهوذا عملاق بين الرجال ضخم الوجه والأنف ، عريض الجبين والمنكبين ، واسع العينين والفم ، خشن الأكف والأقدام ، رث الهيئة ، ولكنه يبدو كالملوك فى عظمة فطرية لا يكسبها المجد الدنيوي ولا تخلعها مظاهر الثراء المادى .

إنها بلا ريب شخصية جذابة فاتنة ، تخضع لها الأنثى قبل أن تخضع الملكة . فخضعت الاثنتان معاً : الملكة الذليلة بحرمانها ، والأنثى المتعطشة بحاجة بدنها ... ومرعان ما وقعت المرأة المتعطشة صريعة لسلطان هذا الفلوك ، فقال : إنها مسكونة ومملوسة[1] وأن روحاً شريراً من الجن يحتل كل عضو من أعضاء بدنها ، ويسيطر على كل جارحة من جوارحها ، فلا بد من سيطرة أقوى من سيطرة الجن ... !

فقالت : وأين تكون السيطرة التى هى أقوى من سيطرة الجن يا أبتاه ؟

فضحك الزاهد ضحكة عريضة ساخرة . وقال : سيطرتى أنا !

فخرت أمامه وقبلت أطراف ثوبه البالية وقالت : صدقت يا أبتاه !

ومن تلك اللحظة سلمته قيادها — أعنى قياد بدنها وروحها — وصارت عابدته المخلصة وخادمته المطيعة المؤمنة ، وأعطته مفتاحاً ذهبياً يبيح له الدخول عليها فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، فأبواب قصرها لا تغلق أمامه ، ومداخل مضجعها الملكى لا سر لها حياله ، ولا يعترضه معترض من الحراس ولا الوصيفات ... وكانت كلما خضعت لعلاجه خلعت رداء المرض شيئاً فشيئاً وعاودتها العافية تدريجاً ، فزالت صفرة وجهها ، وفارقتها الهيستريا التى كانت تعذبها وتنخر شبابها وتجفف ماء حياتها ... لقد كان سراً رهيباً ، لم يقو أحد على إذاعته ، ولم يملك أن يتفوه به ... وكان الملك فيدور الثالث لا يدرك ولكن الهمس حول رأسه أشبه بطنين الذباب

لقد تمت المعجزة وضحكت الملكة كلارپوتا ضحكا عالياً ، وزالت غضون جبينها وفارقتها السوداء[1] ورحلت عن مزاجها السوداء ، وزالت أعراض (الليتارجيا) النكراء ، واختفت علة الميلانكوليا التى أضعفت شهية الطعام ، وأنهكت قوة أعصابها ، وامتصت دماء أنوثتها ، وملأت رأسها بالأخيلة فى الصحو ، وبالأحلام المزعجة فى النوم

وكان الملك فيدور الثالث كلما تمشى البرء فى بدن خليلته دب السقم فى أحشائه ، فاصفر لونه ، ونحل بدنه وهزل كيانه ، وعراه خبال وذهول ، فكأن الذى أسبغ ثوب العافية على المرأة ، سلبها فى رفق وأناة من أوصال الرجل ، فازداد ضعفاً على ضعف ؛ فأهرعت الدولة نطس الأطباء من كل مكان وبذلت لهم كل ما فرضوا من مال ونوال ورتب وألقاب طامعة أن يصيب تشخيصهم وعلاجهم

(١) فى الأصل possedée أى مملوكة لقوة خفية

(١) السوداء melancholie . ويقال امرأة سوداوية المزاج hysteric

محجة الصواب ، فكانوا إذا أقبلوا على سريره ورأوا تحوله وتحول لونه ، وجسوا نبضه ، وسمعوا دقات قلبه ، وفحصوا دمه ، هزوا رؤوسهم يأساً وقالوا : « إننا لنفرغ أقصى الجهد ! »

فدخل عليه الزاهد الرهيب يوماً فى غفلة منهم ومسح جبينه بكفه وقال له : « إن شفيت تنذر لى يامولاى نذراً » . قال : « نعم يا أبتاه! فما هو ؟ » . قال : « ألا تعير أذنك لوشاية واشٍ ، ولا تصدق فى حق عذل عاذل »

قال الملك وهو يكاد يجود بأنفاسه : « لك ذلك يا أبتاه ! »

فركع الزاهد بجوار السرير ودفن وجهه فى لفائفه وأمعن فى صلاة حارة، ولما نهض من صلاته كان وجهه الأسمر الداكن وشعره الأسود الفاحم مبللين بالدموع ، وأخذ يعيد الكرة اليوم بعد اليوم ، وأخذت صحة الملك بعد قليل فى التحسن ، وعاودته القدرة على الطعام والقعود والوقوف — حتى المشى على الأقدام . . .

فشاع فى أنحاء المملكة المنكوبة أن صلاة (نوار كوتو) قد أنقذت الملك ، بعد أن أنقذت الملكة ، فاكفهرت وجوه الذين تحدثوا بالسوء من قبل ونسبوا شفاء الملكة الى علاج سفلى ، أو طريقة شهوانية وخطة شيطانية جعلت الحياة تدب فى جسم المرأة المحرومة ، التى كانت عليلة بالحرمان . وقال أنصار الراهب : هل كان بينه وبين الملك فيدور الثالث غرام واتصال كالذى زعمتم وجوده بينه وبين الملكة فى ظلام الليل وخفايا القصر ؟ . وأحيطت رأس الراهب بهالة من المجد و بُعدِ الصيت ، وهو بعد لم يغادر بيته الحقير فى أحياء الفقراء . ولكن النساء النبيلات ، وزوجات العظماء كن يتزاحمن على أقدامه ويقبلن إخمصه وكعبه ، ويتشبثن بركبتيه ، قبيل العلاج . وكان العلاج معلوما ، لابد منه ولاغنى عنه . . . لابد لكل امرأة أن تخضع ، وكن يخضعن مسرورات ، ألم تخضع أول سيدة فى البلاد ففازت بالصحة والحياة بعد اليأس من النجاة ؟ وعاد طنين الذباب رنينا فى آذان الملك ، فكان يستدرج الوشاة حتى يعترفوا له وينقلوا اليه كل مايشاع ويملأ الأسماع ، فيأمر بسجنهم وتجريدهم من أموالهم ، ويضيفها الى طيبه وحبيبه وشافيه ومعافيه ومنجده ومنقذه ، ويقول لنفسه : الحسد والبغضاء والغيرة السوداء ، إن صح مايزعمون عن الملكة — وهو باطل وإفك وكذب منكر — فكيف يفسرون علاجى وشفائى ؟ هل كان بعشقى أنا أيضا ؟ لقد أصاب إذ طلب إلى ألا أصدق الوشاة ، وهذه كرامة أخرى ! فقد تنبأ بخبث أهل البلاط فأحكم الحماية من شرهم بطلب النذر منى فأمنته ووفيت معه. كان نوار كوتو أخا أورجيات [1] ، لايرحم . ولم تكن أنثى واحدة بكافية ، بل إناث متعددات ، وليست قنينة واحدة بشافية، بل قناني ودنان مختومات مفعمات . وليست راقصة واحدة بقاضية أمنية

(١) أورجيا حفلة تهتك واباحة كانت لليونان والرومان وبعض الشرقيين . وكتبها العرب هكذا .

النفس بل راقصات ومطربات . . ألم يعلم أن فى هياكل الهند ومعابد المكسيك نساء عاريات اسمهن عرائس الآلهة المبذولات للكهنة ، وأحيانا لكل طارق وعابد . . . وهذه النسوة المغشيات حول كوخه ، المحاصرات لمسكنه من الفجر الى نصف الليل ، المرميات على أقدامه ، أليس فيهن صالحات لأداء تلك الوظيفة ، وهي عبادة « الاطمئنان » ؟ إن قوة الرجولة فيه نادرة المثال قادرة على إخضاع نصف نساء المملكة والقضاء على أوجاعهن المؤكدة . وقدرة الذكورة الكامنة وراء سوادعينه ، وسواد شعره ، وضخامة أعضائه كفيلة باخراج الجن من أبدان الكاهنات مهما كان الجنى الساكن عنيداً ، فثارت عواطف النبيلات المهجورات وغلت دماء الشباب فى عروق المرائس اللواتى كن زينة القصور وحلية المجتمع ، ولكنهن زوجات لأزواج لا يزيدون على التحية والاحترام وتقبيل الأيدى فى المجالس والأبهاء ، أما هصر تلك القدود ، والتمتع بورد الخدود ، والمناجاة فى المضاجع فكانت خارجة عن نطاق جهودهم وشاهدة بعجز نحوتهم عن أجدادهم لأنهم أسرفوا في فتوتهم فلم يدخروا لرجولتهم ، وقد أشعلوا الشمعة حتى آخرها ، فلم يعد فى عودها شحم يغذيها أو تستمد منه أشعتها ولذا هجروا المقائل فى القصور ، كالمحظيات فى المعاقل ، فكان (نوار كوتو) كعبة آمالهن ومحراب عبادتهن حتى الراهبات فى الأديرة هجرن المذابح والمضاجع وحللن ببيت الزاهد يلتمسن الرحمة ! الرحمة يا أبتاه ولم يكن للرحمة التى جرى اسمها على ألسنتهن سوى معنى واحد

وفى أحد الأيام علم البيلكو [1] سومان أن زوجته (البلكايا تندويس) قد فرت من القصر ، فوجدت فى حال بين السكر والموت ، عارية البدن وموخوزة بأسنان مدية قاطعة فى زورق شراعى ضال فى عباب نهر شانطور الذى يمر بالعاصمة وقد اعتدى عليها بعد أن عذبت . ولكنها كانت فى كل الأحوال راضية . فنقل البيلكو حليلته إلى القصر والتجأ إلى الكولونيل (أنفور ماتورى تشايف) زعيم الخفية ورئيس الشرطة السرية ودفع له ألف فلورين ذهباً ووعده بمثلها إن هو أظهر له الجانى الذى استباح عرضه وهتك أستار شرفه ، وجمع بين الفجور والقسوة ... فاستوثق الكولونيل (أنفور ماتورى تشايف) من البيلكو سومان ألا يبادر إلى الانتقام ، وألا يبوح باسمه إذا سئل عنه في التحقيق ، فوعده بذلك فقال له : « إنه نوار كوتو الذى دأب على استغلال سيطرته على عاشقاته وأنه منح أجلهن لقب الأخت المختارة وكان يوعز إليهن أن يعصين أزواجهن ، فان الأزواج رجال ضرورة جمعت بينهم وبينهن دواعى المال أو الحسب ، أو الخوف من هيبة الدين والأهل ، وهذه كلها ترهات ! أما المحبوب القاهر فهو الزوج الصادق الحق والعاشق القابض على زمام الارادة عن طريق الجسم والعقل » وصمت (الكولونيل أنفورماتورى تشايف) ووضع سبابته على فمه علامة الأمر لمحدثه بالصمت

وقد أيقن البيلكوسومان أن نوار كوتو أصبح صاحب الحول والطول داخل القصر وخارجه وذا الكلمة التى لا تعصى ولا ترد ، وأن أذنى الملك فيدور الثالث مقفلتان دون كل وشاية ، لأنه مدين له بحياته وحياة زوجة الملكة ، فزاد ذلك من حقد البيلكو سومان الذى أهين شرفه ، وأهريقت

(١) لقب شرف مثل كونت ولورد ومؤنثه بيلكايا كما يقال كونت وكونتة

كرامته ، وديست عاطفة الزوجية منه بالأقدام ، ولكنه أضمر الانتقام وصمم على الثأر ، وكان طوال أيامه يعالج زوجته وينعشها ويطمئنها ويستدرجها لتعترف له، وهو يسجل اعترافها ويخفي وراء الأستار شهود سماع يسطرون أقوالها في ثبت رسمي فعرف الكثير من أسرار الرجل ، وأن امرأتين تبغضانه وتتربصان به الدوائر (ستارهزنا) رئيسة دير (بواركان) وهي في أول أمرها نبيلة وقعت فريسة لشهوته وغدره ولم تنل من حبه مأربها ، إذ كانت تتمنى أن تستأثر به ، فهي قد وقفت أموال الدير ، وهي طائلة ، على الانتقام منه . ثم البارونة بيلادونا عقيلة الوزير (بيلهاين) وقد كان سبباً في إسقاط بعلها وإقصائه عن دست الوزارة ثم هجرها ، وما زالت تهوى في حلزون الشقاء والانحطاط حتى صارت تعرض التسري بها على من يشاء لقاء أجر معلوم ، ولكنها مع ما حل بها من الضياع وانهدار الحرمة لم تنس ثأرها . فحدثته نفسه أن انتصاره على خصمه قرين محالفة هاتين المرأتين، إذ لا أمل في الانتقام من رجل مهما علا أو هبط بغير معاونة النساء فانهن مخالب الشيطان ورأس الأفعى وأداة الشر . فسعى البيلكو سومان الزوج الموتور إليهما وعقد بينهما وبينه أواصر المودة وأفضى إليهما حتى أمنتا جانبه ، وكانتا تحسبانه في أول الأمر عيناً عليهما أو أذناً لنوار كوتو أو مولاته الملكة ، فأخذهما إلى قصره وأدخلهما على قرينته ، وأسمعهما من فمها قصة ألمها وعارها ، فأطلعتاه من أمر الكاهن الزائف على ما لم يعلمه أحد ، فعلم أن السر في شفاء الملك المخدوع أن الراهب إذ كان يتظاهر بعلاج الملكة ، كانت تدس لزوجها السم بأمره ، جرعات معلومة مقدرة ، من زعاف نباتي لا يترك في الأحشاء أثراً ، ولا يقتل فريسته للوهلة الأولى ، فلما أراد صنع الكرامة كفت الزوجة بأمره عن تسميم زوجها ، فعاودته الصحة ... ولكن الحادثة إذا صيغت للملك في أبلغ قالب وأزهى سورة وأصدق رواية لا يصدق قائلها ولا يؤمن به ، بل يرميه بكل سوء ، ولا يعفيه من عقاب . وكان لنوار كوتو خادم مخلص اسمه (يانكو) ومريد وفي يدعى ليبوس ، فاستدرجهما البيلكو سومان بالمال والنساء تنفيذاً لخطة وضعتها رئيسة الدير الموتورة التي كانت معشوقة الراهب ، وبذل لهما البيلكو النضار وقدمت لهما ربة الدير ما شاءا من راهبات وسقتهما ماروى غلتهما من خمر ، حتى أفضيا لها بأن الراهب سوف يكون منفرداً في بيت خلوي وفاء لموعد غرام جديد، وسوف توافيه إحدى النبيلات المشتعلات بالشوق إلى قربه لتحقيق أحلام الهوى التي يحلم بها نساء كثيرات من طبقتها بعد أن أقض هجر الرجال مضاجعهن ؛ وأن هذه النبيلة تخشى مفاجأة زوجها أو أحد أقاربها فتسلحت بالرصاص والسم وأسباب أخرى للهلاك ، قد توردها موارد التلف إن تنسمت ريح الفضيحة ، وأن هذه الحسناء الخجول الحذرة وتدعى (كوتشتا) لا تلبث أن تصل إلى الدار لتجوس خلالها وتعرف مخابئها ، حتى إذا بلغتها يوم اللقاء كانت آمنة مواطن الفزع من رقبائها . وأن اليقين قاطع بوهمها وأنها فريسة لمخاوف مزعومة . وإذن ما أسهل أن يكمن واحد أو اثنان من عداة الكاهن... ثم استمرت الكاهنة الموتورة في وضع خطة محكمة جعلت مصرع الكاهن الملتهب من فعل عشيقته الملتهبة أمراً ميسوراً

وفي اليوم المحدد لزيارة النبيلة زيارة كشف واستطلاع ، انفلت إلى الدار ثلاثة من النبلاء الموتورين في أعراضهم وقد تأبطوا حقيبة ضخمة

أودعوها قوتاً وأسلحة وحوائج أخرى ، فلما فتح الباب ودخلت البارونة (كوتشتا) صبروا حتى غاب سوادها فى ظلال الأشجار الوارفة وانسلوا بحذق كأنهم ينفذون مكيدة حرب فى مواقع الدرافيديين أو التوكسمانيين جيرانهم وأعدائهم من قديم الزمان ولم توشك المسكينة أن خرجت ، وقد اطمأنت وهى لا تدرى ما تخبئه لها الأقدار والأحقاد . ولم يطل على القابعين الانتظار فقد وافى فى اليوم التالى الراهب متزيناً فى زى أعيان الريف وجاء بعده أحد الخادمين يحمل ما يحتاج إليه مجلس الشراب ومخدع الهوى ثم انصرف الخادم وبقى الراهب فى الانتظار . وبعد الغروب جاءت النبيلة فى ثوب ريفية شمطاء مبالغة فى التخفى وغلقت الأبواب ، وجلست إلى الراهب فى استعداد لقطف أحلى ثمار الهوى ، وهى تمنى نفسها بتلقى صدمة الغرام العنيف[1] ، تلك الصدمة الأولى التى تشفيها من كل داء

ولم يوشكا أن يشرفا من نافذة النشوة على بستان الحب الفسيح ، حتى سمعا دقاً على ثلاثة أبواب فى وقت واحد ، وقبل أن يسترد العاشقان المأخوذان روعتهما ، دخل ثلاثة من أقارب النبيلة : زوجها وأخواها ... فجن جنونها ونهضت وأخرجت سلاحها فوقف الراهب بينها وبين أهلها فأطلقت الرصاص عليه فى لحظة جنون وفزع ثم أدنت من فمها خاتماً أنيقاً كانت جعلت فصه مخزناً لسم قاتل ، فلم توشك أن مصته بشفتيها حتى سقطت صريعة ... وانكفأ الراهب عليها ينعشها بطريقته غير حافل بمحضر الرجال الثلاثة ، فى سبيل إنقاذ معشوقته التى كاد يذهب ضحيتها كما ذهبت ضحيته . وكانت مواطن الرصاص من جسمه تسيل دما ، ولكنه كان يقاوم عوامل الموت بدوافع حيويته ؛ ويزأر حينا كالضبع الجريح وطورا يغمغم غمغمة مبهمة فأهوى عليه الثلاثة الدخلاء بمخاجرهم وهو يجأر ويخور كالثور الكبير والفحل النابغ وينهض ثم يقع متخبطا فى دمه ، حتى نزف معظم مافى عروقه وكان دماً أسود قاتماً كدم الجن . فلما أيقن الثلاثة بموته رفعوا لحاهم المستعارة ، ونزعوا ثيابهم التى جعلتهم فى صورة أقارب النبيلة حتى توهمت أنها قد فضحت حقا وأن أباها وأخويها وقفوا على سيرها فأقدمت على القتل والانتحار فى حين أن خصوم الكاهن لم يزيدوا على أن قلدوا تصاوير أقاربها ، وانتحلوها ليحلوا محلهم لحظة تفقد فيها النبيلة رشدها بالرعب ، فتنتحر أوتقتل الراهب المزيف خطأ . وقد نفذت تلك الخطة المحكمة كما رسمها رئيسة الدير .

فلما تم لهم ما أرادوا غادروا المكان وتخلوا عن الحقيبة وأذاعوا فى العاصمة نبأ مصرع شيطان الانس حتى علمت به الملكة والملك . فانتحرت (كلاريوتانا) وجن فيدور الثالث وثار الشعب على النبلاء الكهنوت ووضع الفلاحون والصناع أيديهم الطامعة على كنوز ديزفيدانيا فانتهز الدريفاديون والتوكسمانيون فرصة خلو العرش واضطراب الأمن وزوال العدل فاحتلوا أرض الوطن ... وأقاموا لنوار كوتو تمثالا وللنبيلة كوتشاتو نصبا من المرمر لأن فسوق الأول وخشية الثانية من العار كانا سببا فى امتلاك وطن ديزفيدانيا وزوال دولتهم .

محمد لطفى جمعة

(١) فى الأصل premier "shock" d'amour لم ندر المقصود بها ولا سيما وإن إحدى الكلمات انجليزية